الفصل السابع

انتقال العلوم اليونانية إلى أوروبا من العرب وليس القسطنطينية

في عام 330 م، وقع اختيار الملك قسطنطين على مدينة يونانية قديمة تسمى «بيزنطة» لتكون عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية بعد أن أطلق عليها اسم «القسطنطينية»، وبقي الوضع على ما هو عليه حتى أتى عام 1453م فدكَّ الأتراك حصون المدينة التي بقت عصِيَّة على أن تُخترَق بالمدافع، ومن ثَمَّ بسطوا سلطانهم ونفوذهم عليها، وكان من أثر ذلك أن فرَّ العديد من العلماء اليونانيين قاصدين إيطاليا والتي نقلوا إليها الثروات اليونانية القديمة من الفلسفة والفنون، وهو التراث الذي اعتبره البعض السبب المباشر، إن لم يكن الوحيد، في قيام النهضة فى أوربا.

وكانت كل علوم وتكنولوجيا العالم القديم قد انتقلت بالفعل إلى أوروبا عن طريق العرب قبل هذا اليوم بزمن طويل في عملية بدأت قبل عام 1100م وانتهت بمجيء الوقت الذي سقطت فيه القسطنطينية، على الرغم من الازدهار الذي وصل إليه

العلم اللاسيكي على يد العرب كان هو السبب الرئيسي في إيقاظ أوروبا علميًّا إلا أن أحدًا لم يأبَهْ لهذه الحقيقة.

«كانت المنهجية التي تبنَّاها الكُتَّاب الذين لم يكونوا على دراية بتاريخ العلم أن يتحدثوا عن النهضة العقلية العظيمة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكأنها نتاج لاتصالها الوثيق بالنهضة الفنية في إيطاليا والتي نجمت بدورها عن التأثير البيزنطي».

يقول «لانسيلوت هوجبن» في كتابه الذى يحمل عنوان «العلم للمواطن» ما نصه:

«الحق أن تقدم العلم يدين بالقليل للأنمطة والنصوص الكلاسيكية التي تدفقت من الإمبراطورية الشرقية حيث جنى العرب ثمار العلم الرومانى ثم نقلوه بصورة تدريجية إلى أوروبا الشمالية، ولذا، فإن هذا التقدم يُدان به لليهود الذين كان من وقع الأثر الهائل لأطبائهم أن أسسوا مدارس الطب في القرون الوسطى، كما يرجع الفضل لهم أيضًا في تطوير علم الملاحة وزيادة وقع صداه في أوروبا، وذلك قبل أن يخفت نور الجامعات التي أسسها المسلمون[1].»

(١) لانسيلوت هوجبن- العلم للمواطن، W.W. Norton, N. Y. C.

obeikan.com

2

كيف لم تنقل القسطنطينية التي ظلت لفترة طويلة من الزمان مركز الحضارة والحياة اليونانية لأوروبا إلا النزر اليسير خلال فترة تقدر بنحو أحد عشر قرنًا كانت فيها حليفة للإمبراطورية الرومانية الشرقية؟ إن الحقائق التي تكمن وراء هذا الموقف لتُميط اللثام عن الكثير من الدُّرر فيما يتعلق بنهوض وسقوط الحضارات.

كان اليونانيون في القسطنطينية من جنس البشر ذوي الموهبة والذين أقدموا بجسارة على «التفكير» للمرة الأولى في التاريخ، فقد كانوا يقفون على حافة الهاوية في هذا العالم السحيق عندما قام آباؤهم الأولون بالإقدام على تحليل عملياته التي يقوم بها من الناحية العلمية، وهي المغامرة الاستكشافية التي مهدت الطريق للوصل إلى درجة كبيرة من التفكير العلمي الذي يحظى به العالم اليوم.

وإبَّان هذه الفترة الوجيزة والتي أنار فيها دروب العالم القديم، خَبَت نور العلم اليوناني بصورة تدريجية حيث حلَّ علم اللاهوت المسيحي محل الفلسفة الوثنية

بدءً من عهد «قسطنطين»، كما اقتصر ظهور العلم والنبغاء اليونانيين في الغالب الأعم على الأنشطة غير العلمية.

أما حياة «القسطنطينية» فإنها وإن لم تكن مشرقة في الجانب العلمي، فإنها قد كانت كذلك في جانب المعيشة الرغدة حيث ازدهرت التجارة بينها وبين كل من المشرق والشرق الأدنى، وكان في القسطنطينية فقط أن عاش اليونانيون حياة الرغد إذ لم يكن لهم اتصال كثيف مع رفقائهم المسيحيين في كل من إيطاليا وأوروبا الغربية على الجانبين السياسي والديني.

وعلى الصعيد السياسي، لم يكن الجزءين الشرقيين والغربيين للإمبراطورية الرومانية بعد عهد «ديوكلتيانوس» منفصلين عن بعضهما البعض فحسب؛ ولكنهما كانا في حالة تنافسية لدرجة أنهما تنافسا بشدة على بسط نفوذهما وسيطرتهما على مصر وشمال أفريقيا بصفة خاصة، ومن ثَمَّ، فقد ظلت حكومتيهما في عداء مع بعضهما البعض فترات زمنية طويلة.

وبقي الصراع الديني يمثل الخطر المدلَهِمّ الأكبر من هذا كله، وقد زادت هُوَّة الشقاق في عام 378 م عندما أُعلِنت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الشرقية وحيث أصبح الإمبراطور طبقًا لمقتضيات منصبه رئيس الكنيسة الشرقية، وكانت الكنيسة في بادئ الأمر أكثر قوة في القسطنطينية منها في روما والتي كان البابوات يكافحون فيها من أجل إرساء نفوذهم، أما الكنيسة الغربية، فإنها قد اكتسبت نفوذًا

في العالم المسيحي من خلال تمسك القوط الغربيين بالنمط اللاتيني للمسيحية وما أتبعه من ولاء للبابا.

وأضحت البابوية في روما من خلال إرساء هذه السيادة المركز الرئيس في العالم المسيحي، وعلى الرغم من الاقتراحات العددية التي قُدِّمت للكنيسة الشرقية كي تتحد مع روما إلا أن جميعها كانت عديمة الحرب إذ زادت حدة العدائية بين الكنيستين في عام 1204م لتصل إلى مرحلة العنف وذلك على إثر قيام جنود الحملة الصليبية الرابعة يدعمهم أسطول ضخم من مدينة البندقية الإيطالية ومن خلال الخيانة التي أتت من داخل المدينة بالاستيلاء على قلعة روما الغربية حيث كان غرضهم- وهو الغرض الذي تلقى تبريكات البابا- أن يُجبِروا الكنيسة الشرقية على الخضوع لسلطة البابوية، وهو الهدف الذي لم يكن بمقدورهم تحقيقه على الرغم من نصرهم العسكري.

وعلى الرغم من أن الصليبيين قد بسطوا سلطانهم على البلاد بحلول عام 1261 م، إلا أن القسوة وأعمال السلب والنهب التي ارتكبوها لم تستمل قلوب إخوانهم الشرقيين، وفي الوقت ذاته، وجد الصليبيون أنفسهم في مواجهة نفس الدرجة من الكراهية من قبل اليونانيين في القسطنطينية، ولذا، فإنه على الرغم من أن القسطنطينية قد باتت المركز الرئيسي للحضارة اليونانية إلا أن سكانها كانوا مناوئين وبمعزلٍ عن الكنيسة الرومانية وأوروبا.

وقد شغفت القسطنطينية بماضيها كونُها البقعة الوحيدة على ظهر الأرض التي لا تزال تحيا عليها «أبهة اليونان جنبًا إلى جنبٍ مع مجد روما»، وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في غَيَاهِب التدمير والفقر والأمية والفجاجة التي كانت السمة المميزة للعصور الوسطى، كانت القسطنطينية على الجانب الآخر تتبعد في كنيسة القديسة آيا صوفيا التي احتفظت بمكانتها منذ نشأتها كأفخم بيت للعبادة وجُد على ظهر الأرض؛ كما كان سكانها ينعمون بممارسة الرياضة في مضمار السبق الذي مثل القلب النابض للحياة في بيزنطة، وعلاوة على هذا كله، فقد أضْحت البلاد ذات ثراءٍ جراء التجارة التي نشطت من وإلى موانئها الصناعية.

وعلى النقيض من القسطنطينية، فإن البلدان الأوروبية لم تنعم بالفخر بماضيها حيث إن أوروبا تحت ظلال المسيحية قد قطعت بالكلية أواصر الصلة بينها وبين اليونان وروما الوثنيتين، وفي هذا الصدد يقول «أر دبليو سوذرن» في كتابه «صناعة العصور الوسطى» ما نصه: «أثارت بيزنطة في العيون الغربية العجب والحسد والراهية والحقد والدهشة جراء الصعوبات الناجمة عن كل محاولات لم الشمل؛ غير أنها لم توقظ «في قلوبهم» الاحترام والفهم المطلوب[1].»

وكان من أثر هذه العلاقة العدائية أن أفضت بالكاد إلى تبادل مثمر للأفكار. ومن

(١) أر دبليو سوذرن- صناعة العصور الوسطى- Yale

ثَمَّ، فقد ظل الوضع على ما هو عليه حتى كان منتصف القرن الخامس عشر فانتقل نزر يسير من نظام التعليم في اليونان عبر مصدرها المنطقي- القسطنطينية- إلى أوروبا.

obeikan.com

obeikan.com

3

انتقلت معرفة اليونانيين القدماء إلى أوروبا عبر طريق غير مباشر في ظل ظروف أكثر مواتاة وملاءمة، إذ أنه على الرغم من جو العداء الذي كان سائدًا بين روما والقسطنطينية إلا أن مناطق معينة في أوروبا قد خيَّم عيها مناخ من الأنس حيث عاش المسلمون والمسيحيون جنبًا إلى جنبٍ لعدة قرون وحيث انتقل علم اليونان فعليًّا إلى داخل أوروبا.

وكانت النصوص العربية التي نقلها العرب إلى لغتهم الأم عبر مر القرون قد اثارت اهتمامًا بالغًا في نفوس الغربيين حيث بدأ العلماء اللاتينيون الغوص في أعماق هذا الخضَمّ الهائل من العربية إلى اللاتينية- اللغة التي انتقلت بها المعرفة إلى داخل أوروبا.

يقول أر دبليو سوذرن:

«أرخّت هذه الحقبة من الزمن لتدشين طريق مروري تسير فيه الأفكار في اتجاه

واحد- الأفكار التي نقلت المعرفة العلمية للغرب اللاتيني بطريقة اعتراها الشك خلال القرن الحادي عشر والتي زادت دوافعها بدرجة كيرة خلال القرن الثاني عشر، وتجدر الإشارهنا إلى أن الرجال الذين كانت الدولة الإسلامية تخلفهم ورائها جراء تقهقهر سلطانها ونفوذها- كما حدث في أسبانيا وصقلية وإيطاليا الجنوبية- والذين كانوا على دراية بالعربية واليونانية أو كان بمقدورهم لعب دور الوسيط بين العالم المسيحي والعالم الخارجي كانوا محط أنظار العلماء اللاتينيين الذين رأو فيهم فرصة لا تعوض، وقد ولى العلماء من انجلترا وفرنسا وإيطاليا شطرهم تجاه هذه المراكز طلبًا للمعرفة. وكان من نتاج الجهود التي بذلوها هم ومعاونوهم أن شُيِّدت مكتبة جديدة أوسع وأكبر من أي مكتبة أخرى عرفتها أوروبا في تاريخه[1]ا.»

وكانت أعمال الترجمة من العربية إلى اللاتنية قد بدأت على يد «قسطنطين الأفريقي»- الراهب المسيحي الذي عاش في صقلية في منتصف القرن الحادي عشر حيث قام بترجمة عدد من الأعمال العربية - ولاسيما في مجال الطب- إلى اللاتينية باعتباره عضوًا في دير مونت كارلو البينديكتي.

وكان «جيرارد الكريموني» والذي عمل في طُليطلة في الفترة من عام 1175م إلى عام 1187م أعظم مترجم في هذه الفترة على الإطلاق كونه الوسيلة الوحيدة ذات

(١) أر دبليو سوذرن، منقول

obeikan.com

الأهمية القصوى في نقل العربية إلى اللاتينية إلى جانب المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه في لفت نظر العلماء في كل أرجاء اوروبا إلى العلم اليونانيّ والآخر العربيّ.

obeikan.com

obeikan.com

4

وكان من الأعمال التي تُرجمت ونُقلت إلى أوروبا تلك الأعمال الطبية لجاليليو وسقراط، بيْد أن الأعمال الموسوعية التي أنتجها علماء الطب العرب كان لها الأهمية القُصوى، ولعدة قرون من الزمان ظلت هذه الترجمات تُدرس في كل مدارس الطب في أوروبا باعتبارها كتبًا دراسية، كما نُقلت أعمال أرسطو في علوم الطبيعة والفلك والنبات إلى أوروبا حيث كان لها وقع كبير على الفكر العلمي والفلسفي واللاهوتي لأوروبا طيلة العصور الوسطى، وبالإضافة إلى هذه الكتب المؤلفة في العلم اليوناني، فقد ترجم الكثير من الأعمال العلمية للعلماء العرب والذين أخص منهم ابن سينا وابن رشد والرازي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عملية الترجمة ذات الأهمية هذه والتي قد دَشَّنت عهدًا جديدًا لأوروبا قد بلغت تمامها بحلول بداية القرن الثالث عشر- القرن الذي شهد نهضة الجامعة الأوروبية.

ومن ثَمَّ، فإن هذه الأعمال التي أمكن إنقاذها من الحضارة اليونانية بالإضافة إلى الإسهامات العلمية للعرب أنفسهم قد حَوَت جوهر المعرفة والتي كانت مُهَيئة لأن تُستَخدم في هذه المؤسسات التي أخذت في النمو بشكل سريع حيث استفادت الجامعات المُنشأة في كل من ميلان وبافادو وباريس وبراغ وأكسفورد - والتي كانت تستخدم اللاتينية كلغة أصلية- حق الاستفادة من العلم الذى وصلهم من خلال هذه الترجمات.

وبمطلع القرن الرابع عشر، كان تحت إمرَة أوروبا علم ومعرفة العصر الكلاسيكي؛ هذا العلم الذي أثْراه العرب ونقلوه إليهم، ومن ثم، فقد سُدَّت في نهاية المطاف هذه الفجوة المميتة التي كانت تفصل أوروبا عن ماضيها.

obeikan.com